المغرب العربي بين الوحدة والاستقلال

الدكتور المنجي الكعبي

لقد كان تحقيق الوحدة بين أقطار المغرب العربي في طليعة الأهداف الكبرى لحركات التحرير الوطني في تلك الاقطار زمن الاستعمار . واتجهت من اجل ذلك اكثر من حركة وأكثر من زعيم إلى توحيد الحركات الوطنية المغربية ، كمقدمة لتحقيق الوحدة بعد الاستقلال وكاستراتيجية لمواجهة الاستعمار ، عند الاقتضاء ، في جبهات مقاومة مسلحة متحدة غير متشتتة أو منعزلة ، وتجنباً في الوقت نفسه من أن يؤدي الاستقلال المنفرد إلى استغراق كل قطر في مشاكل تدعيم استقلاله وسيادته على حساب الوحدة المأمولة ، أو يؤدي ذلك إلى خلق ظروف نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، في بعض الأقطار ، غير مناسبة لتقريب يوم الوحدة .

ولم تمنع واقعية عدد من زعماء تلك الحركات من اعتبار الوحدة هدفاً والاستقلال غاية نحو ذلك الهدف . وذلك يعني الاهتمام أولاً بقضية الاستقلال الوطني وترك موضوع الوحدة الى ما بعد ، نظراً لطبيعة نظام الحماية أو الاحتلال في كل قطر ، ونظراً كذلك لاختلاف الاتجاهات والأحزاب المتواجدة على الساحة السياسية في كل قطر .

وكان الاستعمار بطبيعته يعمل لتأمين خروجه بأقل تكاليف ممكنة وخسائر محتملة مع توفير الضمانات لمستقبل علاقاته بالأقطار المغربية . ولذلك راهن على التناقض القائم بين حركات المقاومة واجيال المناضلين لاستدراج العناصر الوطنية الأقل تصلّباً وتطرّفاً في المبادىء والوسائل وجرّها نحو مائدة المفاوضة والتعاون .

وكبديل لحالة الحماية أو الاحتلال كانت العروض الاستعمارية تتراوح من الازدواج في السلطة الى الاستقلال الداخلي فالاستقلال التام المشروط باتفاقيات تعاون وبروتوكولات .

وبالرغم من أن موضوع الوحدة بين أقطار المغرب العربي يظهر بعد الاستقلال كمشروع مرتبط كلياً بارادة حكومات وشعوب تلك الاقطار ، الا انه ليس كذلك تماماً . ذلك أن الظروف التي حفّت باستقلال كل دولة ونوع النظام الذي اختارته وسياستها الاقتصادية وعلاقاتها الخارجية ، اصبحت كلها أموراً ، بل عوامل لها تأثير على مشروع الوحدة المغربية ، وفي الغالب لها تأثير معاكس لارادة شعوب تلك الاقطار نحو الوحدة .

ومن هنا فكرة مغرب الشعوب ، ومغرب الحكومات ، ومغرب المنظمات ، ومغرب التكامل الاقتصادي . ظهرت هذه المتصورات كبديل عملي للوحدة الاندماجية ، أو تعويضاً عنها ، أو مرحلة من المراحل الضرورية المؤدية اليها . بل ان الوحدة بمعناها العفوي المطلق أيام الكفاح الوطني أصبح بشهادة عدد من السياسيين في بعض الأقطار المغربية ممن كانوا آنذاك من زعماء الاستقلال أصبح حلماً من أحلام الشباب ، بل كان على الاصح حلماً من احلام الشباب ، ويبدو الآن لهم أمنية يصعب تحقيقها في ضوء الواقع السياسي الحالي ، وفي المستقبل ، لأقطار المغرب العربي .

ومن مغرب عربي كبير ، الى مغرب عربي أكبر ، إلى مغرب عربي وكفى ، كان شعار الوحدة المغربية يخضع لتقليص وتمديد يعكس مستوى الحرارة في العلاقات السياسية بين الحكومات الشقيقة في المنطقة .

ولم يسلم مبدأ الوحدة المغربية كدعوة وكشعار من الاطراح أو الاختفاء في بعض الأقطار في فترات معينة من تداول الحكم بها ليترك المجال لمفهوم أشمل وألصق بالوجدان الشعبي ، هو مفهوم الوحدة العربية من الخليج إلى المحيط .

وما من شك في أن اطراح شعار وحدة المغرب العربي ورفع شعار الوحدة العربية صاحب أو أعقب ردود فعل معينة ازاء اجتياح تيار القومية العربية لأقطار في المغرب العربي ، كانت في أوج الغيرة على استقلالها أو في حالة استقلال لم يستكمل بعد مقوماته ، أو يعمر رؤوس زعمائها تصور مختلف لمستقبل دولهم بعيداً عن الوحدة .

وأثيرت قضايا التضارب بين الوحدات الجزئية والوحدة الشاملة

ودور الاستعمار ، والاستعمار الجديد في إذكاء الانفصال بين أقطار المغرب وبين بقية أقطار العروبة . والى الآن وفكرة المغرب العربي تعاني من عقدة القومية العربية ، رغم ما أصاب المدّ القومي العربي في السنين الأخيرة من انتكاس وتشتّت ، ورغم ما يبدو على السطح من حين لآخر ، من تصالح بين الأنظمة العربية المختلفة ايديولوجياً .

ورغم جلال مبدأ الوحدة وانطوائه على جاذبية تتحدى المنطق والمعقول ، فان بعض زعماء النضال ، في المغرب العربي ، لم يأبهوا ، بمجرد أن أمسكوا بمقاليد السلطة بعد الاستقلال ، من الازراء بالعواطف الوحدوية الجياشة ، التي كانت تفيض بها صدور شعوبهم ، ولم يترفقوا في استعمال كل منطق ، وكل معقول ، وكل الضغوط احياناً للحد من تفاعل جماهيرهم مع الشعارات الوحدوية المنطلقة هنا وهناك ، وخصوصاً من مصر ، بعد ثورة يوليو ٥٢ .

حتى ان ذلك التصرف عد من قبيل حب الرئاسة ، والاقتتال على الزعامة بين الرؤساء والملوك العرب ، سواء في المشرق العربي أو في المغرب العربي . كما نظر إلى واقع الصراع بين الزعماء الوحدويين والزعماء الاستقلاليين على انه صراع بين اجيال سياسية ، يعكس الصدام بينها مستوى التخلف التاريخي ، بين كل قطر وآخر ، في نيل استقلاله ، وفي طريقة التحصيل عليه ، ويعكس الى جانب ذلك الاختلاف القائم في التكوين السياسي والثقافي بين زعماء كل قطر والقطر الآخر ، واحياناً بين زعماء القطر الواحد . كما يترجم عن نظرة كل زعيم الى علاقات بلاده قديماً بدول المنطقة ، والأهمية الاستراتيجية والحضارية التي كانت لها في الماضي ، ويقدر أن تكون لها في المستقبل .

وكانت الدعوة إلى حتمية الوحدة ، وحتمية تحقيقها بالحل الثوري ، كما أصبحت تملأ أبواق الدعاية في بداية الستينات خصوصاً وتدخل كل بيت وقرية في العالم العربي ، بمثابة تهديد صريح لعدة أنظمة في دول المغرب العربي قائمة أساساً على الفكرة الوطنية الضيقة . فازداد التطرف في كل شيء وتكثفت حملات الدس والتآمر لمواجهة ما يوصف من جانب بكونه نزوعاً إلى الهيمنة والاستقلال في شكل وحدة مزيفة ، وما يوصف في جانب آخر بكونه تبعية وعمالة للاستعمار وتحالفاً مريباً مع قوى الشر لضرب تيار الوحدة العربية ، أمل الجماهير وحلم الملايين .

ولكن الجماهير لم يكن ليغيب عنها رغم عفويتها ، بل بفضل عفويتها وحدسها السليم ، تقدير الصدق والاخلاص في كل ما يسمع ويقال ويكتب حول الوحدة . ولذلك كانت تخرج عن صمتها الطويل أو اغضائها بمفاجآت مذهلة في بعض المناسبات .

ولما كان تحقيق الوحدة العربية أو المغربية فورياً أو ثورياً ـ بالفاء أو بالثاء ـ أمراً تعارضه معظم الأنظمة القائمة فإن البديل الذي تقدمه تلك الأنظمة هو التداعي الى بناء الوحدة لبنةً لبنةً بالتعاون والتنسيق وحسن الجوار واتصال الحوار في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، إما جماعياً فيما بينها في اطار منظمات حكومية كجامعة الدول العربية أو اللجنة الاستشارية المغربية ، واما ثنائياً اذا تعذر ذلك . ولكن الحل الثوري ، وان كان قد مني بخيبات مريرة وانتكاسات عديدة لم يسقط بالمرة من الاعتبار ، نظراً للنسق البطيء والمتعثر والمتطامن احياناً ، المطروح كبديل للحل الثوري .

ومن المفارقات البيّنة في موضوع الوحدة الإلحاح المفرط والغريب في كتابات الدارسين والباحثين على قضية حتمية الوحدة كحل للمشاكل القائمة في مستوى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، بين دول المغرب العربي لتحقيق الازدهار لشعوبه ومواكبة التقدم والحضارة . إلى من يتجه هؤلاء الباحثون بالاقناع ؟ قطعاً ليس إلى عامة الشعب الكريم الذي تحل الوحدة في سويداء قلبه محل العقيدة السامية والعاطفة المقدسة .

وقد تكون هذه العقيدة وتلك العاطفة هي فعلاً كل ما ينقص الدراسات العلمية والموضوعية التي تعالج موضوع الوحدة . ومن هنا القطيعة القائمة بين أولئك الذين يفكرون في الوحدة ضمن مقوماتها الروحية وأولئك الذين يفكرون فيها كسوق أوروبية مشتركة أو ككنفدرالية سويسرية أو نحو ذلك .

إن قضية الوحدة في الضمير العربي الجماعي كقضية الاستقلال ، قضية كرامة وتأكيد ذات ، ورفع تحدّ وتحقيق مثل . ولذلك باءت بالفشل كل المحاولات السياسية القديمة لتحقيق وحدة بين أقطار شمال افريقيا في ظل الاستعمار وبايعاز منه ، أو بين الدول العربية المشرقية في ظل جامعة للدول العربية مهيّأة أكثر لتكريس الأوضاع القائمة والاستقرار والتعايش ـ كمنظمة الأمم المتحدة ـ منها لتحقيق الوحدة والاندماج .

وما الاستقلال في الأصل عند كثير من الزعماء إلا غرض لغاية أبعد أو غاية لهدف أسمى . استقلال لماذا ؟ للاستقلال عن التبعية الاستعمارية . فاذا تحقق الاستقلال فلا موجب للمحافظة عليه ككسب في حد ذاته ، أو التذرع به لعدم الانضواء في كل تبعية تقليدية كانت تدور في فلكها الدولة المستقلة قبل الاستعمار . لا موجب لذلك لأن حركات النضال من اجل الاستقلال في كامل أقطار الشمال الافريقي ، كان وقودها الاسلام والعروبة ، ولم تكن الوطنية الضيقة وبالصيغة الأوروبية الا بقدر ضئيل في اذكائها ، بل ان الوطنية في صميم الوعي الشعبي هي صنو الاسلام والعروبة . ولذلك فمن تمام الاخلاص للاسلام والعروبة ربط حلقات الشعوب التي تدين بهما من جديد في وحدة سياسية ، ليس بالضرورة مشابهة للوحدات القديمة المخلدة أسطورياً أو تاريخياً في الذاكرة الشعبية .

ولكن في صورة وحدة مثالية تماماً مثلما كان الاستقلال صورة مثالية استشهادية ، قلّ من كان يعمل لتحقيقها من أصحاب العقول المتنورة ، المنطقية جداً أو البراغمتية جداً والمتجنسة جداً ـ اذا صح التعبير ـ بجنسية الحضارة الغربية .

ورغم تبعياتنا الى أشكال استبدادية في الحكم والملك والخلافة التي عرفتها اقطارنا في بعض فترات من تاريخها ، فقد استقر في خلد العرب عامة ، وخصوصاً أولئك الذين قاسوا من الاستعمار ، ان اعداء الاسلام والعروبةمن صليبيين واستعماريين وصهاينة هم أصل البلاء في تفكك أوصال العالم الاسلامي والعربي وفي إذواء زهرة الحضارة في أوطانهم .

واغتذت نفوس اجيال واجيال زمن الاستعمار بهذه الحقيقة التاريخية ، المبالغ فيها ربما ، أو المصطنعة لأغراض سياسية ، لمقاومة الاستعمار في اعتقاد بعض الزعماء . ولكن حتى لو سلمنا باعتقادهم ذاك أو بمسؤوليتهم في تركيب هذه الحقيقة التاريخية لأغراض سياسية ، فان مشكلتهم الحالية ازاء اندفاع شعوبهم المستقلة ، بكل حنين وسرعة نحو الوحدة المفقودة ، تصبح كمشكلة بيجماليون مع تمثاله الجميلّ الذي صنعه امرأة فنفخ القدر فيها الروح . . .

والواقع أن الوحدة لا تفتأ تغذي آمالاً أخرى ، كما غذت أمل الاستقلال ، ولا تفتأ تتراوح في أديولوجيات المنظرين ، والزعماء الوحدويين ، بين كونها هدفاً للنضالات العربية الجديدة ، وبين كونها وسيلة ثورية لبناء مجتمع الاشتراكية والديمقراطية لشعوب الأمة العربية .

وما قضية فلسطين بالنسبة للعالم العربي اليوم ، إلا كقضية الاستقلال بالامس بالنسبة لكل دولة من دوله المستعمرة تقوم كلمة الوحدة ، أو شعار الوحدة ، ببعديها الديني والقومي بالتأثير نفسه ، الذي كانت تقوم به بالنسبة للحركات الاستقلالية ، ولكن لا من اجل تحرير فلسطين فحسب بل في الوقت نفسه أو بصورة موازية من اجل انهاء عصر الدويلات المستقلة وقيام دولة الوحدة .

وبالفعل ، فان قضية الوحدات الجزئية ، بين بعض الدول وبعض بأي عنوان كان وبأية دواع كانت ، تثير هي اليوم ما يشبه مخاوف الأمس من نزوع بعض الدول العربية قديماً الى الاستقلال بصورة منفردة وبشروط مجحفة ، أو في ظروف غامضة من شأنها ، أو يظن أن تشكل عرقلة أو ضغطاً على القوى النضالية في الأقطار الشقيقة . خصوصاً وان الاستعمار كما شجع على ارتقاء الدول الخاضعة لحكمه لنيل استقلال صوري شجّع ، ولا يزال يشجّع ، على قيام وحدات جزئية في قوالب وتوجهات من وحيه . . وخشية الالتباس أو منعاً من قيام التنافس حتى بين الوحدات الجزئية المخلصة لقضية الوحدة الشاملة ، فان الحل الأمثل المطروح يظل دائماً هو الوحدة الشاملة بالحل الثورى .

ومما أنضج قضية الوحدة وزكّى توجهات حتى أكثر الدول العربية تخوفاً منها ومقاومة لها في السابق ، هو ارتفاع نسبة الثورات والانقلابات والانتفاضات والتضحيات التي قامت باسمها في العالم العربي . ويبدو أنه لا يمكن بأقل التضحيات الممكنة إلاّ تحقيق أقل الأهداف بعداً ورفعة . ولقد كانت الوحدة الاسلامية هي الوحدة التي عمرت أولاً قلوب الشعوب العربية وغير العربية في بداية عصور الاصلاح . ولكنها عُدّت الهدف الأبعد والأرفع ، وتضافرت أسباب داخلية وعوامل خارجية لخلق أو لاستدراج أو لاقناع زعامات كثيرة بتفريغ جهودها لفائدة أهداف اقل طموحاً وأكثر واقعية .

وعلى مدار النضال العفوي للجماهير الاسلامية العربية في الشمال الافريقي ، وفي المشرق بصورة عامة ، طيلة أكثر من نصف قرن ، ترتسم تحوّلات كبيرة لتأطير نضالاتها نحو مسارب تفضي بالضرورة إلى حلول أخف وطأة على السياسة الاستعمارية والامبريالية العالمية ، والى أهداف دنيا أو وسطى تلهيها لحين على الأقل عن أهدافها الكبرى ، أو تعرقلها دون الوصول اليها .

وهكذا فلم يكن بدّ من المرور ، من مرحلة النضال من اجل الوحدة الوطنية الضيقة بالمفهوم الاستعماري إلى مرحلة الوحدة القومية بالمفهوم الغربي ، إلى المرحلة الحديثة التي تتجاوز الوحدة القومية أو تتضافر معها ، وهي مرحلة الوحدة الاسلامية .

وهي مرحلة رغم اسبقيتها التاريخية دحرت إلى الخلف زمناً طويلاً بسبب ما أتيح من غلبة للتيارات الوطنية والقومية ، المتنافية في القاموس الأوروبي مع التيارات الدينية ، لاعتبارات صليبية أو « تقدمية »

ولم تستطع هذه الحركة الظهور من جديد على سطح النضال العربي ، وخصوصاً في بعض دول المغرب العربي ، إلا بعد أن استنفدت كل الدعوات الأخرى ، الوطنية والقومية والجهوية حظوظ نجاحها أو ضرائب فشلها .

ولقد ولّد التزامن الحادث بين التيار الاسلامي الحديث وبين تيار الوحدة العربية القديم نسبياً مدخلاً جديداً للقوى الأجنبية ، لتغذية النعرة العرقية بين الشعوب الاسلامية ، العربية وغير العربية ، وبين الاقليات الدينية والقومية منها في البلد الواحد .

وقطعاً فان نجاحات الحركة الصهيونية وانكشاف بُعدها العنصري والديني والامبريالي ، أفقد كثيراً من الحركات أو السياسات الوطنية والقومية في العالم العربي رصيدها الشعبي ، ومصداقيتها لدى الجماهير العربية هنا وهناك في مواجهة اسرائيل . وحوّل أنظار هذه الجماهير ، إلى الحل الديني لتجاوز التحدّي الصهيوني والخطر الامبريالي ، خصوصاً بعد حادثة القدس .

وما تصاعد المدّ الاسلامي خصوصاً بعد الثورة الخمينية الاسلامية في ايران إلا آية على ذلك .

كما أن تعاظم النفوذ الامبريالي في السنوات الأخيرة في العالم عموماً ، وفي العالم العربي خصوصاً ، قد ولّد ، ليس ثورات وطنية أو قومية كما حدث بعد سنة ٤٨ وقبل اكتشاف سلاح البترول ، بل ولّد في العالم العربي تحديات بحجمه . وقد وجدت بعض الثورات البسيطة في الأصل في المنطقة مجالاً لبلورة هذه التحديات واحتضانها . فمنحت نفسها لأول مرة بعداً عالمياً خطيراً ، يتجاوز الرقعة العربية والقارة الافريقية والعالم الثالث . . .

ونظراً للشحنة العاطفية المفقودة نسبياً في التوجه السياسي في بعض أقطار المغرب العربي للوحدة ، سواء الجزئية أو الشاملة ، فان منطق التعقل والواقعية والإنيّة ، الذي يسود هذه الديار ، يكشف من حين لآخر عن قلة فاعليته في تحويل أنظار الجماهير العريضة ، عن الأبواق الخارجية واقناعهم بغير الشعارات المرفوعة وراء حدودهم .

والغريب أن التراث وقع توظيفه ـ ربما بدون وعي ـ لغير صالح سياسة الخطوة خطوة في تشييد صرح الوحدة المغربية . ذلك ان شرط الندّيّة والمساواة وحسن النية وتقديم طاقم الخبراء للجان والندوات التحضيرية ، يتنافى مع طبيعة وأسلوب أمثلة الدول التاريخية الموحدة للشمال الافريقي كالفاطميين والمرابطين والموحدين . ذلك ان توحيد شمال افريقيا في ظل تلك الدول كان توحيد غزو وفتوح ، اذا لم نقل ثورات بالمعنى الحديث .

ولكن بناء المغرب العربي يمكن أن يتم بالثورات ويمكن أن يتم كذلك بالحقائب الدبلوماسية وباللقاءات بين الانتلجنتسيا المغربية ، وبدراسات الخبراء والباحثين ، حتى لا يبدو فقط من كلمتنا أن أقطار المغرب العربي أصبحت تجري في اتجاه الاستقلال أكثر فأكثر وكانت قبل الاستقلال تجرى فى اتجاه الوحدة(*) .

(*) محاضرةالقيت في ملتقى «بناء المغرب العربي» الذي نظّمه «مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية » بتونس في تشرين الأول الماضي .

دار الآداب تقدم

في سبيل ارتقاء المرأة

بقلم روجيه غارودي

ترجمة جلال مطرجي

إن مجتمعاتنا، منذ ستة آلاف سنة، قد أنشأها وقادها الرجال، وفي سبيل الرجال:

أما نصف البشرية النسائي، فقد وُضع تحت الوصاية وهُدر. وهذا النظام الذكوريّ هو نظام المنافسات وكل مظاهر العنف والتسلّطات والحروب والجيوش.

وحركة النساء، منذ قرنين، ولا سيما منذ سنة ١٩٦٨، تَضع قيد المحاكمة أسس هذا النظام.

والنساء، إذ يخضن الصراع في آن على جبهتيْ الأمومة وحياتهنّ الشخصيّة والاجتماعية، هنّ أشدّ تأثّراً بالبطالة من سواهنّ. إنّهن يُقصَيْن غالباً عن المناصب- المفاتيح في الاقتصاد والإدارة والسياسة. وحتى على صعيد الزوجيّة والعائلة، فإن استقلالهنّ الكامل أبعد من أن يكون قد اعترف به.

ولا شك أن ارتقاء النساء الفعلي إلى جميع الوظائف القياديّة سيؤنسِن السلطة. كما أن التفتّح الكامل للجنسيّة النسائية سيؤنسن الحبّ....

وهذا التحوّل سيتطلّب حدًّا من التغيير في البُنى والذهنيّات يصبح معه تحرير النساء تحريراً الإنسانية.

وهذا الكتاب «في سبيل ارتقاء المرأة» يُعطي وجهاً لهذا الأمل.

صدر هذا الشهر